جدلية الاتصال والانفصال بين الشرق والغرب، رواية "اللاز" للطاهر وطار.

The dialectic of connection and separation between east and west

Novel: "Laz" by TaharOuatar

د. الجمعي بن حركات

قسم اللغة والأدب العربي، جامعة باتنة

Djemai.benharket@univ-batna.dz

تاريخ الإيداع: 2019/09/32 تاريخ القبول: 2019/10/13

ملخص:

في رواية "**اللاز**" لـ "**الطاهر وطار**" التي صدرت سنة 1972، والمؤسسة للجنس الروائي باللغة العربية في الجزائر، نجد علاقة الشرق بالغرب تكتسي طابعا خاصا تحكمه موازين القوة داخل الجزائر، وخارجها (العصر الذهبي للاشتراكية في الجزائر، وانتشار الاشتراكية في العالم على نطاق واسع).

فتمثيلات الغرب في هذه الرواية مستمدة أساسا من رؤية الكاتب السياسية والإيديولوجية باعتباره أديبا ثوريا، ومناضلا يساريا يستعمل الأدب وسيلة لنشر الوعي، وهندسة العقول، والقلوب، وتشكيل المخيال الاجتماعي من منطلقات ثقافية معينة.

لذلك نجد أن بطل الرواية "**زيدان**" الذي يعد جسرا عابرا بين الشرق والغرب يمثل هذه المواجهة التي تقوم على جدلية الاتصال، والانفصال؛ الانفصال عن الغرب الاستعماري الرأسمالي، وتفكيكه، والاتصال مع الغرب الشعبي، النضالي، الثوري الذي يمثل الطبقة الشغيلة المناضلة الثائرة، والتي تؤسس للغرب الجديد الذي يدكّ الرأسمالية، والغرب الاستعماري المهيمن.

وهذا التواصل تجسده امرأة هي "**سوزان**" التي يرتبط بها البطل لتفتح له أبواب النجاة، والخلاص، والتجذر في الاشتراكية.

فالغرب امرأة عند الروائيين العرب، كما كان الشرق امرأة بالنسبة للرومانسيين الغربيين في القرن التاسع عشر. الغرب امرأة وما يتصل بذلك من استيهامات، ورغبات، وإسقاطات ورموز. ولكن بخلاف كثير من الأدباء العرب الذين وظفوا المرأة الغربية في مخيالهم الروائي، والتي كانت رمزا لاستحالة التواصل الثقافي والحضاري مع الغرب (توفيق الحكيم، سهيل إدريس، الطيب صالح... الخ)، فإن "**وطار**" وظف المرأة الفرنسية باعتبارها رمزا للحرية،

والالتقاء بين الشعوب، والتضامن بين القوى الثورية في العالم، من منطلق الإيديولوجية الأممية، والمصير الإنساني المشترك، إنها خيط "**أريان**" «fil d'Ariane» الذي ينقذ البطل والشرق والإنسانية.

وبخلاف نظرة "**كيبلنغ**" «Kipling» التشاؤمية، والتي ترى أن الشرق والغرب خطان متوازيان لا يلتقيان أبدا، فإن "**الطاهر وطار**" يؤسس للالتقاء، والحوار، والتجاوز نحو حلم اشتراكي وطوباوية إنسانية واعدة.

الكلمات المفتاحية: الطاهر؛ وطار؛ رواية؛ اللاز؛ جدلية؛ الشرق؛ الغرب

Abstract:

In the novel "**Laz**" By: Tahar Ouatar published in 1972, and which established the foundations for the novel genre in Algeria, we find that the relationship of East to West has a special character governed by the balance of power both inside and outside Algeria (the golden age of Socialism in Algeria, and its spread in the world on a large scale)

The representations of the West in this novel are primarily derived from the author's political and ideological vision by telling him a revolutionary writer, and a leftist militant who uses literature to raise awareness, and engineering minds and hearts, and modeling the society imagination from given cultural standpoints.

So we find the hero of the novel "**Zidene**" who is considered a transit bridge between East and West represents this confrontations which stands on connection and separation; separation from the colonial capitalist West and its dismantling, and the connection to the popular revolutionary militant West which represents the labour revolutionary militant class which aims at lying foundations for a new West that will destroy capitalism and the dominant colonial West. Such connection is embodied by a woman named "**Suzane**" who is associated with the hero to lead him towards survival, salvation and rooting in Socialism.

The West is a woman for the Arab novelists as was the East a woman for the western romantisists in the nineteenth century. The West is all inspirations, desires, projections and symbols related to woman. But unlike many Arab writers, who have set up the western woman in their writing imagination as a symbol representing the impossibility of civilization and culture connection with the West (Tawfik El-Hakim, SouhilIdriss, Tayeb Salah …etc.), Ouatar used the French woman as a symbol of liberty, encounter between peoples and solidarity between revolutionary powers in the world. From the standpoint of internationalism ideology and the common human destiny, it is "**Arian Thread**" which saves the hero, the East and humanity.

Unlike "**Kipling**" pessimistic view which sees East and West as parallel lines which do never meet, TaharOuatar lays foundations for connection, dialogue and transcending towards a socialist dream and a promising human blessedness.

Key words : Tahar, Ouatar, novel, Laz, dialectic, east, west.

يعتبر "**الطاهر وطار**" أشهر روائي جزائري يكتب بالعربية، وقد ولد كروائي من خلال رائعة "**اللاز**"، التي أحدثت ضجة وقت صدورها سنة 1972.

«رغم المدة الطويلة التي استغرقها "الطاهر وطار" في كتابة هذه الرواية، فقد جاءت مترابطة ترابطا داخليا محكما.[1]

فالرواية تطرح قضايا جديدة بجرأة، وشجاعة، وتمرد. لقد استطاعت هذه الرواية أن تكسّر المسار القصصي الجزائري التقليدي، وتحدث قطيعة مع المتخيل الأدبي الجزائري.

كما كان لهذه الرواية أصداء كبيرة في أوساط الأدباء الجزائريين، والأدباء العرب؛ لأنها رواية مؤسسة للجنس الروائي المكتوب باللغة العربية في الجزائر، وكان دورها الإيديولوجي واضحا، ذلك أنها رواية نضالية وملتزمة، وموجهة أساسا ضد الاستدمار الفرنسي في الجزائر.

«هذه هي رواية "**اللاز**" في محتواها العام، وفي اتجاهاتها الإيديولوجية السياسية في الأدب الجزائري الحديث».[2]

استطاعت هذه الرواية أن تؤدي دورها السياسي في المواجهة بين قوى التحرر، وقوى الامبريالية، وأن تتموقع بقوة داخل التيارات الإيديولوجية المتصارعة.

وقد فرض "**الطاهر وطار**" نفسه كأديب متميز، وأصيل، ومتحكم في أدوات الفن الروائي التعبيرية.

كما يتميز بتشبعه بالإيديولوجية الماركسية، التي ينهل منها فكرا، وموضوعا ورؤية، وتشكيلا فنيا.

«لقد تبلورت هذه النزعة على الخصوص عند الروائي "**الطاهر وطار**"، الذي كان انتماؤه الإيديولوجي للفكر الاشتراكي الشيوعي هو المحرك لأعماله الروائية، وكانت طروحاته الفكرية تصدر عن هذا الانتماء، أو يتأثر بمعطياته».[3]

يتجسد هذا في شخصية المناضل الثوري العالمي "**زيدان**"، الذي يعدّ شخصية مركزية في رواية "**اللاز**"، الذي يغترب ويستقر في "**فرنسا**"، حيث يلتقي بالشابة الفرنسية "**سوزان**"، التي تدخله في الحزب الشيوعي الفرنسي ليتلقى فيه تكوينه السياسي، والإيديولوجي (ونود

الإشارة هنا إلى مسألة زواج الإنسان الشرقي من الفتاة الغربية التي وردت عند كثير من الروائيين مثل: "**مولود فرعون**" في رواية "**الأرض والدم**"، و"**طه حسين**" في روايته المعنونة "**الأيام**"، و"**عرعار محمد**" في روايته "**مالا تذروه الرياح**").

فعلاقة "**زيدان**" بـ "**سوزان**" تؤسس للمشروع الشيوعي.

لقد استعار الروائي "**الطاهر وطار**" جنسه الروائي (الشكل، القوالب، التقنيات، الأسلوب...الخ)، من الرواية الاشتراكية، التي ازدهرت في القرن التاسع عشر على يد كبار الروائيين اليساريين، "**تولستوي**"، "**دوستيوفسكي**"، "**بلزاك**"، "**ستندال**"، "**فلوبير**"، "**زولا**"، "**ديكنز**"... الخ.

فالروائي لكي يبدع لابد أن يعود إلى التراث الفكري، والأدبي المستمد من أفكار الأدباء الذين سبقوه في المجال الإبداعي، وهذا ما كان يعنيه "**ت. سإليوت**"، عندما تحدث عما يُكسبالأدب صفة الأصالة، ذلك أن كل عظيم يدق أجراس النصر لأعمال أخرى كثيرة، والأثر الجديد لا يتنصل أبدا من ماضيه، ولو أنه فردي.(4)

حيث أخذ هذا الجنس الروائي، الذي تبلور، وتحددت معالمه مع هؤلاء الروائيين مثل: (الشخصيات، الحبكة، السرد، المكان، الزمان، الحوار، العقدة، القص... الخ).

لقد حاول الروائي "**الطاهر وطار**" أن يستفيد من التجارب الجديدة، التي طورت في القرن العشرين، مثل تجربة رواد ما يسمى بـ "**الرواية الشيوعية**"، حيث نلمس توظيف المغامرة الروائية المعقدة، وحضور التجريب، والجرأة الفنية، ونحن نعرف أن المبنى، والمعنى وجهان لعملة واحدة، وأن جودة المعنى تقتضي جودة الشكل.

فالروائي "**الطاهر وطار**" أديب ثوري، وهو جدير بهذه التسمية، فالثورة عنده رؤية، ووعي إبداعي، وحدس فني واختراق للواقع، ومتخيل أصيل، وإعادة إنتاج واقعي.

لقد تأثر الروائيون العرب بالأدب الروسي، وبالاتجاه الشيوعي الماركسي وأعجبوا به أيّما إعجاب؛ لأنه يقتبس النضال، ويدعو إلى حب الوطن.

«إن التأثيرات الأجنبية على الأدب العربي، قد جاءت في بداية الأمر من جهة الآداب الغربية، ولكن اهتمامنا في مصر، وفي باقي الدول العربية بالآداب الروسية، قد بدأ بعد ثورة عام 1919، عندما كان على البلد أن يهتم اهتماما جادا بالأدب، الذي عليه أن يعكس أهم

القضايا، التي تهم الشعب، والتي يرغب في تحقيقها، والذي عليه أن يكون شعور الحب عند المواطنين تجاه الوطن، ويمتاز الأدب الروسي السوفييتي بهذه الميزات الإيجابية، التي من شأنها أن تأخذ بيد المواطن العربي عن طريق نضاله، وتبث فيه شعور الحب للوطن، والدفاع عنه، ولقد وجد شعبنا في هذا الأدب الروسي، والسوفييتي الغني بالمآثر الثورية».[5]

كما أكد النقاد العرب على أن أدبنا العربي قد تأثر بالآداب الغربية.

«ألا وهما الاتجاه التقدمي المتفتح الذي يؤكد على أن أدبنا العربي عامة، والسوري خاصة، يتصل بالحضارة، والثقافة العالمية ككل، ويتأثر بها، ويؤثر فيها، وخاصة في مجال الأنواع الأدبية المتداولة كالأقصوصة، والقصة، والرواية، والمسرحية، كما يؤكد النقاد على أن أدبنا العربي، قد تأثر بدرجة كبيرة بالآداب الفرنسية، والروسية، والإنجليزية، والسبب في هذا هو أن الواقع العربي في عصر النهضة، وظروف التفتح الثقافي، والحضاري في حركة التحرر الوطني المتصاعدة، قد ساعدت على هذا التأثير المباشر».[6]

ومن بين الروائيين الجزائريين الذين تأثروا بالأدب الروسي، الروائي "**الطاهر وطار**"، الذي أعجب بهذا الأدب أيّما إعجاب، يتجلى هذا في شخصية "**زيدان**" في الرواية الموسومة بـ "**اللاز**".

فـ"**زيدان**" بطل رواية "**اللاز**" نشأ فقيرا، وبهذه التنشئة يريد الروائي أن يعايش معاناة الفقراء، وأن يتقرب منها، ومن قضاياهم، وأن يكون أدبه مرآة عاكسة لما يجري في الحياة الاجتماعية من أفراح، وأتراح، من سعادة، وشقاء، وقد ركز بصفة خاصة على الوضع المأساوي، الذي يعيشه المجتمع نتيجة تدهور أوضاع الطبقة الفقيرة.

وهو بهذا يشبه الروائي الروسي "**ميخائيل شولوخوف**"، حيث أطلق النقاد على هذا الأخير.

«لقب "الكاتب الشعبي" لقربه من الشعب، وقضاياه، وأصبح هذااللقب مرافقا لاسمه، ومعترفا به من قبل الأوساط الأدبية السوفييتية، والعالمية».[7]

فعلاقة "**زيدان**" بـ "**سوزان**" تؤسس للأممية الشيوعية.

«ذات يوم بادرتني "**سوزان**".

- مُرّ علي، عندما تخرج في المساء.

(...) وذات يوم، قادتني من يدي إلى دار البلدية، لنسجل عقد زواجنا، وفي كل ليلة، قبل أن تنام تقبلني، وتهمس في أذني:

- ستدخل الجامعة الشعبية.

إلى أن وجدت نفسي ذات يوم أدرس الاقتصاد السياسي، في الجامعة الشعبية، وببساطة أيضا، وجدتني في حلقة ماركسية، ثم في خلية شيوعية إلى جانبها، وقبل أن أتخرج انتخبت بمدرسة إطارات الحزب ودرست مبادئ القيادة الجهوية، ثم الإقليمية، وليلة احتفالنا بتخرجي من الجامعة الشعبية، همست "**سوزان**" في أذني.

- سنرحل إلى موسكو، للدخول إلى مدرسة القيادة الوطنية.

مرت الأمور بسرعة فائقة، وساعد عدم إنجابنا للأبناء، على أن لا أشعر أبدا بأننا زوجان، إنما رفيقان لا غير...

وبعد سنة غادرتني في موسكو إثر برقية من باريس تخطرها بمرض أمها، ولم تعد».[8]

تعلم "**زيدان**" على يد "**سوزان**" التي تعتبر.

«من الشخصيات الفرنسية التقدمية الواضحة في رواية "**اللاز**"، "**سوزان**" التي تمثل طهارة، ونقاوة الإنسان الفرنسي التقدمي بالخدمات التي قدمتها إلى "**زيدان**" الشاب الجزائري القادم من عمق الفقر، وقحط الفكر، إنه مادة خام وقع بين يدين باهرتين. إن "**زيدان**" القروي البسيط حولته "**سوزان**" إلى مناضل ثوري ذي مبادئ، ومثقف كبير أحد أعمدة الثورة وعنصرا فعالا يدوخ الاستعمار، وعنجهيته».[9]

كما أُعجب بها أيما إعجاب.

«يتحدث "**زيدان**" عن "**سوزان**" الفرنسية بكثير من التقدير والاحترام بل والتقديس».[10]

علمته القراءة، والكتابة، كما نشأت بينهما صداقة.

«هنا يُعلّمون القراءة والكتابة، لن تمر ثلاثة أشهر حتى تجد نفسك شخصا آخر».[11]

فـ "**الطاهر وطار**" آمن بأن المرأة هي الركيزة الأساسية التي يبنى بها المجتمع، فبدونها لا يقوم هذا الأخير.

«لا يمكن أن نعزل المرأة ومصيرها والمجتمع يبني مؤسساته، لأنها جزء من المجتمع الذي يحويها، وهي حصنه الواقي لكيانه ووجوده».[12]

فهو بهذا يشبّه "**زيدان**" بـ "**روسو**" في سر عبقرته، فالسر يكمن في علاقته بالمرأة التي أوصلته إلى مكانة مرموقة.

«لقد ظل "**روسو**" شيئا مهملا إلى أن امتهن الموسيقى فعرّفته بالنساء، وأوصلته النساء إلى مكانة مرموقة في المجتمع».[13]

كما يحاكي أيضا الروائي "**توفيق الحكيم**" في روايته المعنونة بـ "**عصفور من الشرق**"، فبطل الرواية "**محسن**"، الذي تعرف هو الآخر على الفتاة الغربية المسماة "**سوزي**"، التي أحبها، وهو بهذا الحب أحب الحضارة الغربية.

«أما توفيق الحكيم فقد ألف "**عصفور من الشرق**" حيث عرض للعلاقة بين الشرق والغرب، وجعلها منطلقا رئيسيا لتلك النزعة الإنسانية، والتي نظر الكاتب إلى أبعادها من خلال بطل الرواية "**محسن**"، الذي يجسد الحياة الشرقية، وتمثلُ "**سوزي**" التي تعرف عليها، وأحبها الوجه المُشرق لحضارة الغرب».[14]

فالظروف السياسية، والاجتماعية، والثقافية، التي عاشتها الأقطار العربية جعلتها تتأثر بالثقافة الغربية، هذا ما جعل البطل "**زيدان**" في رواية "**اللاز**" يتأثر هو الآخر بـ

«الإيديولوجية الشيوعية التي أراد أن يموت مخلصا لها».[15]

ومن خلال اطلاعه أيضا على هذه الثقافة.

«وتجب الإشارة إلى أن الظروف السياسية، والاجتماعية، والثقافية، التي مرت بها الأقطار العربية في الربع الثاني من القرن العشرين، كانت تقتضي أن يستفيد المواطن العربي عامة، والشباب خاصة من التجارب الثقافية لكافة الشعوب، من أجل تطوير معرفته».[16]

وبالمقابل نجد أن أدباء الغرب تأثروا هم أيضا بالثقافة العربية؛ لأن الثقافة هي ميراث الإنسانية جمعاء تنتقل من جيل إلى جيل، ومن مكان لآخر.

«ويقول "**فولتير**" أنه لم يزاول فن القصة إلا بعد أن قرأ "**ألف ليلة وليلة**" أربع عشرة مرة، وتمنى "**ستندال**" أن يمحو الله من ذاكرته "**ألف ليلة وليلة**" حتى يعيد قراءتها من جديد،

فيستعيد لذّته، وكذلك "**غوته**"، الذي تأثر بالقصص الشرقي، إذ ألف ديوان "**الشرق والغرب**" مستمدا بعض موضوعاته من التراث العربي».[17]

من خلال هذا نستخلص أن التأثير والتأثر بين الأدبين العربي، والغربي أعطى خبرة، وتجربة للأدباء بصفة خاصة، وللحضارة الإنسانية بصفة عامة.

«فـ "**زيدان**" المثقف خريج الجامعة الشعبية تبنى الشيوعية كإيديولوجية، وفكرة، وهذا تحت تأثير **سوزان**».[18]

يحمل "**زيدان**" رؤى مستقبلية واضحة، يؤمن بالإيديولوجية الشيوعية، فهو شديد الصلة بالواقعية الاشتراكية.

هذه الإيديولوجية لا تتغنى بالطبيعة الفاتنة، وبالورود الجميلة، بل:

«الأديب العظيم (في نظرهم) هو الذي يتنبأ بالمستقبل عن طريق دراسة الواقع ونقده».[19]

فالبطل في روايات الواقعية الاشتراكية، ينبثق عادة من الشرائح الاجتماعية الفقيرة، فـ "**زيدان**" جعله "**الطاهر وطار**" لا يعبر عن نفسه كفرد، وإنما يعبر عن هذا الكيان الاجتماعي، الذي ينتمي إليه عضويا، فهو فرع من هذه الشجرة الكبيرة الضاربة الجذور في أعماق الشعب.

إن البطل إنسان علائقي تعددي، جمعي، إنه بطل الجماعة. ذلك أن الجماعة هي التي تصنع التاريخ، وليس العكس، كما هو الحال في البلدان الرأسمالية، التي تقوم على المذهب الفردي.

الفرد في الواقعية الاشتراكية يذوب في الجماعة، ويستمد حقيقته، وقيمته منها. وهذا التصور طبع كل الإبداعات الثقافية، التي عرفتها أوربا الشرقية خلال العهد الاشتراكي، كتّاب الواقعية الاشتراكية ينتقون أبطالهم من الطبقات المحرومة؛ لأن هذا الانتماء الطبقي سيكون حاسما في إيمان البطل بالإيديولوجية الاشتراكية. فالبطل "**زيدان**" في نظر الروائي "**الطاهر وطار**" الذي تأثر بأفكار إيديولوجية أوربا الشرقية ذو صلة بقضايا شعبه، ويكوّن التحاما طبيعيا مع حركة الثورة، وحركة التغيير الاشتراكي، وكأن الانتماء الطبقي الأصلي يؤدي حتما إلى الانتماء الاشتراكي اللاحق. فلقد استفاد من الأدب الروسي، وجعلته هذه الاستفادة يبدع نتاجات أدبية يُكتب لها الخلود، وتُحفظ رواياته في المكتبات العالمية.

«أن الشيوعية ليست رداء تنزعه في الوقت الذي تشاء، وأنها عقيدة تقوم أول ما تقوم على الاقتناع المدرك للحياة».[20]

والتي يعتبرها أصالته، ورمز وجوده، رجل أحمر يكره الطبقة الإقطاعية ويحتقرها، شخصية بطولية، فهو الذي آمن بهذه الإيديولوجية الشيوعية التي تركته يقود المسيرات النضالية، وخطط لها، وحشد الجماهير لخوض الصراع.

«إنك الوحيد الذي يحتقر الأغنياء ويسبهم».[21]

يؤمن "**زيدان**" بالعدالة الاجتماعية التي دعت إليها الشيوعية.

«**تعلم** "**زيدان**" في مدارس فرنسا، وموسكو، وقضى مدة ست عشرة سنة عضوا دائما في الحزب الشيوعي».[22]

يسوّي بين الغني، والفقير، يتضمنه هذا الحوار الذي دار بين "**زيدان**" وابنه "**اللاز**".

«ترى هل الشيوعية شيء محرم مثل الخمر والزنى والسرقة والخيانة».[23]

يملك ثقافة عسكرية، تدرب بـ "**فرنسا**"، وبـ "**موسكو**"، بعدها عاد إلى الجزائر، والتحق بالثورة، وأصبح قائدا ساهم بثقافته العسكرية في تكوين عدد من المناضلين، فهو يشبه "**حامد**" في رواية "**زينب**" لـ "**محمد حسين هيكل**"، فهي الأخرى شخصية مثقفة، تحتوي مشاعر الإصلاح، سافر هو الآخر إلى الغرب، واطلع على ثقافته، ومؤلفات المفكرين الأحرار.

يملك "**زيدان**" وعيا إيديولوجيا عميقا متميزا ناضجا يعتمد على التأمل، والتحليل، والمقارنة، فهي.

«تمثل طموح الشعب ورغبته في أن تعكس هذه الشخصية آماله».[24]

قرأ بعض الأعمال الشيوعية المتمثلة في الأعمال السياسية، والأدبية، هذه الثقافة أثرت له تجربة أدبية وسياسية.

«وتحليله لبعض الأعمال الأدبية التي قرأها، أو لقضايا سياسية عامة أفرزتها الثورة الوطنية، وهي المناقشات التي أجراها مع نفسه من خلال مونولوجات داخلية».[25]

يـؤمن الروائـي "**الطـاهر وطـار**" بالاشـتراكية كعقيـدة، ومـنهج لاسـتيعاب التناقضـات الاجتماعيـة الجزائريـة، ولبلـورة رؤيـة اشـتراكية تقدميـة، تـدافع عـن الاتجـاه الاشـتراكي، وتنـاقض قوى الإقطاع، والبرجوازية، فالصراع الذي تُركّز عليه الواقعية الاشتراكية، التي آمن بها الروائي "**الطاهر وطار**" لـيس صـراعا بـين أفـراد معـزولين عـن القـوى الاجتماعيـة، على غـرار الروايـة البرجوازية، التي تهتم بمواجهات الأفراد مع بعضهم البعض، أو بالصراع الداخلي، السيكولوجي، والميتـافيزيقي، الـذي تعـاني منـه الشخصـية الروائيـة بعيـدا عـن ارتبـاط اجتمـاعي، بـل الصـراع القـائم هـو بين الشـرائح الاجتماعية الفقيرة من جهة، وقـوى الاسـتدمار من جهـة أخرى، ويصبح الشـعب المسـتعمَر، وكأنـه طبقـة اجتماعيـة بروليتاريـة تقـف في مواجهـة المسـتعمِر، الـذي يشـكّل الطبقـة البرجوازيـة، ذلـك أن النظـام الاسـتدماري هـو مـن إفـرازات النظـام الرأسـمالي، هـذه الاشتراكية استمدها من العقيدة الشيوعية.

«ولم تجـد الدولـة الجزائريـة بـدّا مـن اختيـار المنهج الاشـتراكي نظامـا إيـديولوجيا، وفكريـا، وثقافيـا سـبيلا لتحقيـق مشـروع بنـاء مجتمـع متحضـر وعصـري، فالاشـتراكية تليـق بهـذا الشـعب، كمـا قـال "**زيـدان**" بطـل روايـة "**الـلاز**" شـعب انغمـس في الفقـر، والجهـل، والظلـم الاجتمـاعي انغماسـا»،[26]

شخصية "**زيدان**" شخصية متحركة، وباحثة عن التغيير نتيجة معاناة الشعب الجزائري من قهر، وبطش البرجوازية فـ

«الفـن الـواقعي حـين يقـدم صـورة صـادقة عـن الحيـاة، فإنـه بشـكل حتمـي سـيكون ناقـدا للواقـع البرجوازي، فالتصوير الصادق يعني التعرية لهذا المجتمع، وفضحه».[27]

فهـو في هـذا المجـال منسـجم مـع الروائـي "**شـولوخوف**" في روايتـه الموسـومة بـ "**الـدون الهادئ**"، الذي كشـف عن معاناة الفلاحين الروس، الذين كانوا يعيشـون الفقر، والتهميش، وتمّ إقناعهم فيما بينهم بإنشاء تعاونيات تساعدهم على تطوير المجتمع الريفي.

«ومن إحـدى المهـام الأساسـية، التي كانـت أمـام "**شـولوخوف**" عنـد كتابـة روايـة "**الـدون الهادئ**"، هو الاطلاع عن كثب على حياة القرى البعيدة المتخلفة (...) وإقنـاع السـكان المتواجـدين فيهـا بضـرورة التعاونيـات مـن أجـل تطـوير هـذا المجتمـع الريفـي على أسـس جديـدة، وتكـوين شخصية الفرد القادر على المساهمة بشكل فعال في بناء المجتمع الاشتراكي».[28]

يريد الروائي "**الطاهر وطار**" من خلال شخصية البطل "**زيدان**" تغيير مستوى معيشة الفقراء، التي حُرمت من الحياة الكريمة قرابة قرن، ونصف من الزمان، وهو بهذا يتماشى مع أفكار الروائي "**شولوخوف**"، الذي أراد هذا الأخير إنارة الطريق لشعبه لكي يعيش حياة كريمة أفضل مما كانت عليه من قبل، يقول "**شولوخوف**":

«إن شعبي الحبيب قد سار على طريق شائكة، طريق شقت لأول مرة في تاريخ الإنسانية، لقد كانت طريق الفاتحين الجدد، طلائع الحياة.

لقد أدركت، وأدرك مهمتي ككاتب، وكل ما كتبته، وما سأكتبه، كان، وسيكون، في خدمة الشعب العامل، الشعب الباني، الشعب البطل... أريد أن تساعد كتبي الناس أن يصبحوا أفضل من قبل، أن يصبحوا ذوي نفوس نقية، وأنظف من قبل، إنني أرغب في أن أبعث الحب في الإنسان، وأزرع الأمل في نفسه ليتابع النضال من أجل المبادئ الإنسانية، وتقدم البشرية»،(29)

فـ "**الطاهر وطار**" يساير الروائي "**شولوخوف**" أيضا في الإيمان بحزبه، وبإيديولوجيته، كما أعجب بأهداف هذا الحزب، التي آمن بها البطل "**زيدان**".

«هكذا يضرب "**زيدان**" مثلا في الارتباط الحقيقي بالطبقة الكادحة بالنضال الدؤوب في سبيل توعيتها، وقد تأتى له كل ذلك عن طريق إدراكه للشروط الموضوعية التي تحكم عقلية الأشخاص الذين يتعامل معهم»،(30)

تشبه أيضا شخصية البطل "**زيدان**" شخصية "**كاورست**"، بطل "**سارتر**" في روايته الموسومة بـ "**الذباب**"، الذي يثور هذا البطل، ويحرر المدينة من بطش الحاكم، فيطرد الذباب، ويخلص الشعب من الإحساس بالظلم، هذا الإحساس الذي أفسد حياتهم، وأحالها إلى ذكريات مع أمواتهم، وبالمقابل هناك قوى تريد أن تبيد "**زيدان**" نظرا لاحتوائه على أفكار ثورية.

«يقين أن الأحمر اللعين هو الذي يخطط لهم، تدرب في صفوفنا، وتثقف في مدارسنا، وسبقتنا إليه موسكو».(31)

إنها شخصية عاشت القضايا، التي آمنت بها حتى النخاع، وضحّت بحياتها من أجل هذه القضايا التي رغم تعقد الواقع، وضبابيته.

«"**زيدان**" يضع نفسه وتجربته كلها تحت تصرف هذه الثورة، إضافة إلى خبرته النضالية مع العلم أن التحاقه بصفوف جبهة التحرير الوطني كان بمحض إرادته، مع أنه كان بإمكانه طبعا أن لا يلتحق أبدا، لكن تاريخه الطبقي، ونزوعه الثوري كانا دائما يدفعانه إلى الأمام، ويمنعانه من خيانة وطنه، وثورته، التي اتهم هو ورفاقه الذين كانوا يكونون تجمعا أمميا يتفانى من أجل مبادئه الاشتراكية».[32]

لقد استطاع الروائي "**الطاهر وطار**"، بقدرته الفنية أن يصور شخصية "**زيدان**" تصويرا دقيقا، وواقعيا، كما أضفى على هذه الشخصية روحا بطولية، وزخما ثوريا، وإنسانيا، وروحا ملحمية، فبقدرته الفنية هذه التي يمتلكها هذا الأخير، يشبه الروائي "**شولوخوف**" الذي قال عنه الكاتب "**سيرافيموفيتش**".

«من غير الصحيح نهائيا، أن نقول بأن شخصية "**شولوخوف**" مرسومة، وليست مصورة، إن هذه الشخصيات ليست مجرد وجوه رسمت على الورق، ولكنهم أناس حقيقيون خرجوا منبين الجماهير، ولكل منهم أنفه المرفوع، وتجعيدات وجهه، ويديه، ولكل منهم عيناه الثاقبتان المحدقتان، ولكل لغته ولهجته المحلية، كل واحد يمشي على طريقته الخاصة، ويحرك رأسه كما يطيب له، ولكل ابتسامته الهادئة، وضحكه العالي، وكلمنهم يكره على طريقته الخاصة (...) إن هذه العبقرية النادرة في تصوير العالم الداخلي، والخارجي للفرد، وتكوين الوجه الفريد من نوعه، والبناء الروحي الذي لا يتكرر نهائيا لدى شخصية ما، وما إلى ذلك هي القدرة الإبداعية التي جعلت "**شولوخوف**" كاتبا فريدا من نوعه، ويحوز على شهرة واسعة».[33]

لقد عاشت شخصية "**زيدان**" هموم الحياة، ومشاكلها، عاش بطولات مختلفة في حياته.

«ومات أخيرا من أجل هدف سام، ومات في أثناء تحقيق غاية نبيلة يشرفه الموت لأجلها، وإن كان الإنسان لابد ميتا في النهاية».[34]

وقد يموت البطل في الواقعية الاشتراكية، ولكن موته بعث وانتصار للطبقة التي ينتمي إليها، وتقوم الأحداث في الإيديولوجية الشيوعية، التي آمن بها الروائي "**الطاهر وطار**" بطريقة معينة بحيث تكون موت البطل يوحي بما لا يدع مجالا للشك بالانتصار.

ونجد أن الماركسية التي آمن بها الروائي "**الطاهر وطار**" في رواية "**اللاز**" هي بمثابة المرجعية الفلسفية، والإيديولوجية للواقعية الاشتراكية.

«لأن الإنسان المتكلم في الرواية هو دائما صاحب إيديولوجيا بقدر، أو بآخر، وكلمته هي دائما قول إيديولوجي».[35]

كما تحتوي في ثنايا أسسها فكرة التفاؤل والثقة بالمستقبل؛ لأن تحليل "**ماركس**" لتاريخ المجتمعات الإنسانية أدى به إلى الإيمان بأن ديناميكية التاريخ ستؤدي حتما إلى انتصار البروليتاريا انتصارا كليا، ونهائيا على البرجوازية وسيطرة النظام الشيوعي على العالم كله باعتباره نهاية لسلسلة من الصراعات الإنسانية.

«وقد أدى هاجس الإيديولوجيا بالماركسيين إلى تبني استراتيجية سياسية، وفكرية، وفلسفية، وإيديولوجية لمواجهة ما يسمى عندهم بهيمنة الإيديولوجيا السائدة؛ (أي الإيديولوجية البرجوازية). ويظن الماركسيون أن العائق الرئيسي لانتشار الوعي الطبقي الثوري لدى العمال الكادحين هوإيديولوجية الطبقة الحاكمة».[36]

لذلك نجد الواقعية الاشتراكية محملة بروح التفاؤل، والثقة في ديناميكية الحياة، والإيمان بمصير زاهر، ومشرق للإنسانية، يقول "**محمد مندور**" في هذا الصدد مبينا ارتباط روح التفاؤل بالواقعية الاشتراكية.

«هو أدب هادف إلى تغليب عامل الخير، والثقة بالإنسان وقدرته، وأن واقعيتهم وإن كانت تتخذ مضمونها من حياة عامة الشعب، ومشاكله، إلا أن روحها روح متفائلة تؤمن بإيجابية الإنسان، وقدرته على أن يأتي بالخير، وأن يضحي في سبيله بكل شيء في غير يأس، ولا تشاؤم، ولا مرارة مسرفة».[37]

وروح التفاؤل هي المسيطرة على رواية "**اللاز**" رغم الاضطهاد، والمعاناة، والمآسي التي عاشها الشعب الجزائري، فهذا "**زيدان**" بطل رواية "**اللاز**" تسلط عليه أقصى ألوان التعذيب، ولكن لم يفقد لحظة واحدة إيمانه بعدالة القضية، وبحتمية الانتصار.

إن تطلع البطل "**زيدان**" مثل بقية الأبطال في الروايات الاشتراكية تطلع لتحقيق إنجازات كبرى في المستقبل؛ لأن التفاؤل الساذج، الذي لا يؤدي إلى العمل، والتغيير، والتضحية لا معنى له، فالتفاؤل.

«ليس كتلة جامدة، ولا ماهية ثابتة، ولا عقلية متحجرة، وإنما علاقة توتر مستمرة، وثمرة هذا التوتر الدائم بين الوعي والواقع، والذات والموضوع، والحاضر والمستقبل، والحلم والممكن، وبقدر ما تنجح ثقافة ما في إعطاء حلول إيجابية لهذا التوتر دون التضحية بطرفيه؛

أي دون إلغائه، وهو مصدر وجودها، تؤسس للمجتمع كمجتمع مدني، وتضفي عليه الاستمرارية، والتقدم».[38]

فالتفاؤل الحقيقي في نظر الروائي **"الطاهر وطار"** مستمد من التفاؤل الشيوعي الذي يرتبط بإرادة التغيير، والعزيمة، التي لا تفل، والإرادة التي لا تقهر، إنه المستقبل المشرف، الذي يتطلب من الإنسان أن يصنعه بتضحياته وإرادته، فكان الانتصار في النهاية لصالح هذا الأمل، الذي غرسه **"زيدان"** في شخصيات الرواية، وقد يموت البطل في هذه الرواية، ولكن ليفتح الباب على آفاق غير محدودة للأمل، ولحتمية الانتصار. إن موت **"زيدان"** لا يعني تشاؤما ويأسا، ولكن يعني انتصارا للقضية المقدسة، وبعثا جديدا للحياة في كيان الأمة المنتصرة.

إن هذه الرواية التي كتبت في عهد الاستقلال؛ أي بعد اندحار الاستدمار، وهزيمته النكراء، تعبر عن إيمان البطل، الذي يرمز للجماعة، وللشعب الجزائري بعدالة قضيته.

تقول **"سعيدة هوارة"** معلقة على رواية **"اللاز"**:

«وتحمل اللغة الموظفة في النص السابق دلالات كثيرة، فهي تتسم بالتأمل والهدوء، بالرغم مما فيها من إصرار، وتشع بالأمل، والتفاؤل بالرغم مما يتخلل بعض مقاطعها من ألم ويأس. وقد حقق الكاتب عن طريق هذه اللغة واقعية شخصية فاطنة وربطها بأرض الواقع».[39]

أخيرا يتضح مدى تشبع الروائي **"الطاهر وطار"** بمنهج الواقعية الاشتراكية.

«فهو من حيث الفلسفة الجمالية أديب مخلص لرؤية الواقعية الاشتراكية».[40]

لقد تأثر بها شكلا، ومضمونا، مبنى، ومعنى، رؤية، وتعبيرا ف

«الفكر الاشتراكي والأدب الواقعي، والنقد الاجتماعي أخذ يغزو ساحة الثقافة العربية، ويبسط مبادئه الفكرية، والجمالية على قضايا الوطن والإبداع».[41]

وتعتبر رواية **"اللاز"** امتدادا لكتابات الواقعية الاشتراكية، وقد ساعد المناخ السياسي في بداية السبعينيات على ابتداع رواية **"اللاز"**، التي تستلهم رؤاها من الخطاب الرسمي المستند إلى سياسة الحزب الواحد، على غرار البلدان الاشتراكية، قبل انهيار القطب الاشتراكي.

فالتفاؤل هذا سببه أن الروائي "**الطاهر وطار**" شن حملة واعية ضد النظام الرأسمالي، والذي بني أساسا على القمع، والاضطهاد لطبقة البروليتاريا. كما آمن بحياة التفاؤل رغم المضايقات، التي هي من صنع الطبقة البورجوازية التي ضعفت أمام قوة الجماهير الكادحة، التي أصبحت تؤمن بالعدالة، والحرية.

«فهذه الروح الوثابة الصادقة المؤمنة بالحياة، والمتفائلة بها، رغم كل الصعاب والمشقات، تطل علينا قوية باسمة، مشبعة بالخير، والمحبة، في كل ما نقرأ من الأدب الجزائري، وأن الأدب الجزائري ينحو نحو تحرير الإنسان»،(42)

نستخلص من وراء هذا كله أن الإيديولوجية الماركسية تنمحي التناقضات، شرق ممثل بالجزائر، غرب ممثل بفرنسا، والاتحاد السوفياتي، وتؤسس هذه الإيديولوجية للتناقضات الطبقية البروليتارية البرجوازية، يتجلى هذا في البطل "**زيدان**"، الذي يتخذ من الغرب منطلقا، ومرتكزا للوعي الثوري، والثقافي من خلال الإيديولوجية الماركسية التي تبناها.

ف "**زيدان**" يرتبط بالغرب من خلال زواجه من "**سوزان**"، وتشبعه بالفكر الاشتراكي.

هذا الاندماج الذي أعطى فكرا تقدميا يساريا إنسانيا عالميا، بعد تجاوز التناقض بين الشرق، والغرب، والتعايش بينهما في إطار مشروع نضالي طوباوي تاريخي حضاري إنساني، كما ولد حوارا من خلال الرؤية الماركسية التي أعطت التقاء بين الشرق، والغرب، من خلال التضامن النضالي المنبثق من المصير العمالي المشترك.

«نهضة الغرب ترجع إلينا، كما أن نهضتنا الحالية ترجع للغرب واحدة بواحدة، فلا هو أفضل منا لأنه يعطينا اليوم، ولا نحن أفضل منه لأننا أعطيناه بالأمس»،(43)

الهوامش:

1- ذكر الطاهر وطار في مقدمة رواية "اللاز" أن كتابتها استغرقت سبع سنوات من التفكير، وسبع سنوات من الكتابة.

- الطاهر وطار، اللاز (رواية)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، دار ابن رشد للطباعة والنشر، الجزائر، ط4، 1983، ص 7.

2- محمد مصايف، الرواية العربية الجزائرية الحديثة بين الواقعية والالتزام، الدار العربية للكتاب، بيروت، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د،ط)، 1983، ص 53.

3- سليم بتقة، أوراق بحثية في النقد والأدب، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 2014، ص 59.

4- ينظر، مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، ط2، 1981، ص 105.

5- يحي حقي، فجر القصة المصرية، القاهرة، (د، ط)، (د، ت)، ص 82.

6- ماجد علاء الدين، الواقعية في الأدبين الروسي والعربي، دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، جرمانا، (د،ط)، 2015، ص 103.

7- ماجد علاء الدين، الواقعية في الأدبين الروسي والعربي، ص 116.

8- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص، ص 205-206.

9- شريبط أحمد شريبط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، (د،ط)، 2003، ص 163.

10- موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، دار الشروق للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، (د، ط)، 2008، ص 217.

11- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص 205.

12- حكيم أو مقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار)، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، (د، ط)، (د، ت)، ص 132.

13- طه عمران وادي، محمد حسين هيكل وتراثه الأدبي، مكتبة النهضة، القاهرة، (د، ط)، 1969، ص 125.

14- سليم بتقة، أوراق بحثية في النقد والأدب، ص، ص 50-51.

15- موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، ص 159.

16- ماجد علاء الدين، الواقعية في الأدبين الروسي والعربي، ص 105.

17- محمود تيمور، الأدب الهادف، القاهرة، (د، ط)، 1959، ص 149.

18- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص، ص 203-204.

19- عطية أحمد محمد، مع نجيب محفوظ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1977، ص 130.

20- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص 105.

21- المصدر نفسه، ص 67.

22- موسى بن جدو، الشخصية الدينية في روايات الطاهر وطار، ص 169.

23- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص 106.

24- حمادي صبري مسلم، أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1980، ص 129.

25- جورج الراسي، اللاز، الطاهر وطار، صفحة من تاريخ الثورة، (مقال)، البلاغ، العراق، العدد 185، 28-7-1975، ص 7.

26- حكيم أو مقران، البحث عن الذات في الرواية الجزائرية (الطاهر وطار)، ص 103.

27- فيصل السماق، الواقعية في الرواية السورية، دار البعث الجديدة، دمشق، (د، ط)، 1979، ص 24.
28- ماجد علاء الدين، الواقعية في الأدبين الروسي والعربي، ص 120.
29- ميخائيل شولوخوف، بأمر من أعماقي، دار الحرس الفني، موسكو، (د، ط)، 1970، ص 315.
30- عبد الحميد بورايو، منطق السرد دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 114.
31- الطاهر وطار، المصدر السابق، ص 84.
32- واسيني الأعرج، الطاهر وطار تجربة الكتابة الواقعية الرواية أنموذجا، دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (د، ط)، 1989، ص 37.
33- ألكسندر سيرافيموفيتش، في كلمة عن شولوخوف، موسكو، (د، ط)، 1973، ص 199.
34- نور أحمد، تبدأ الحرب بنداء الحرية، إرنست همنغواي، أحب إلى حد الجنون، وحارب حتى الموت، (مقال)، مجلة دبي الثقافية، الإمارات العربية المتحدة، العدد 99، 2013، ص 25.
35- ميخائيل بختين، الكلمة في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1988، ص، ص 110-111.
36- الطيب بودربالة، الإيديولوجيا وقضايا الفكر والأدب، مجلة الرواسي، تربوية ثقافية، الجزائر، العدد 13، ذو القعدة 1416هـ، أفريل 1996، ص 44.
37- محمد مندور، الأدب ومذاهبه، مكتبة نهضة مصر، (د، ط)، القاهرة، مصر، 1957، ص 96.
38- إبراهيم غليون، اعتقال العقل، محنة الثقافة العربية بين السلفية والتبعية، موفم للنشر، الجزائر، (د، ط)، 1990، ص 89.
39- سعيدة هوارة، الواقعية في روايات عبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار، رسالة ماجستير، (مخطوط)، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1984-1985، ص 203.
40- طه وادي، صورة المرأة في الرواية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1994، ص 208.
41- طه وادي، الرواية السياسية، دار النشر للجامعات المصرية، ط1، 1996، ص 165.
42- سالم جورج، على هامش الأدب العربي، مكتبة الشرق، حلب، (د، ط)، 1965، ص 98.
43- حسن حنفي، في فكرنا المعاصر، دار التنوير، بيروت، ط2، 1983، ص 61.